المعلم الجديد

السنة الثالثة عشرة

ثبت الجزء

المعلم الجديد

الجزء الثاني — مارت ١٩٥٠ — السنة الثالثة عشرة

العقل بين أنصاره وخصومه

بقلم : الدكتور نوري جعفر

مدرس في التربية بدار المعلمين العالية

لعل أغرب ما في الانسان ، من الناحية الاجتماعية عقائده . يتلقف المرء تلك العقائد — سواء أكانت دينية أم سياسية أم اقتصادية — من البيئة الاجتماعية التي يشاركها حياتها ، كما يتلقف عاداته في المأكل والمشرب والملبس . وسبب ذلك هو أن الانسان يولد ضعيفا من الناحيتين الطبيعية والاجتماعية . فليس لديه من الناحية الاجتماعية لغة أو معتقد أو قومية أو دين . أما من الناحية الطبيعية فليس له قوة جسمية يستطيع بواسطتها تطمين حاجاته المعاشية . ولو ترك وشأنه دون ما تعهد ورعاية يقوم بها الراشدون ، لما استطاع أن يعيش طويلا .

يود الناشىء من بني الانسان أن يعيش منسجما مع بيئته الاجتماعية فيرغب عن أهله وعشيرته ، يتوق الى مشاركتهم معتقداتهم ومثلهم العليا في الدين وفي الاجتماع . واذا ما أراد مخالفة السائد من المعتقدات حرص كل الحرص على كتمان ذلك ، تفاديا لما قد يتعرض له من النقد والتجريح

(١) تستعمل كلمة العقل في في هذا المقال ، ترجمة للكلمات الانكليزية الثلاث Reason, Mind, Soul فقد عثرنا أثناء تتبعنا للموضوع على كثير من الكتاب يستعملون هذه الكلمات بالترادف .

أو الامتهان والاعتداء . فالعقائد اذن وسائل يتخذها الانسان لانسجامه مع الجماعة . غير أنه سرعان ما يخضع لها خضوعا منقطع النظير ، ففي سبيلها يحيى ومن أجل الدفاع عنها قد يفنى . وبعبارة أدق ، يصبح الانسان نفسه آلة تسيره العقائد بهذا الاتجاه أو ذاك فيفقد هيمنته عليها ويصبح مطواعا لها يأتمر بأمرها ويتجه أنى وجهته . وتاريخ الحرب خير شاهد على ما للعقائد من أثر في فناء كثير من الافراد والجماعات دفاعا عن مبادئهم الدينية والسياسية .

ان لحرب العقائد ميدانا آخر ، غير ميدان الصراع الدموي ، هو ميدان الفكر . اذ ألفت ، منذ أن اهتدى الانسان الى الكتابة والطباعة ، آلاف من الكتب تفنيدا لبعض العقائد واثباتا لغيرها . وحاول كثير من الناس اعتبار معتقداتهم منزهة عن الخطأ والاشتباه . ولعلنا لا نبالغ اذا ما قلنا أن كافة المؤلفات قديمها وحديثها ، سواء أكانت دينية أم علمية ، لا تخرج عن كونها محاولات لاثبات صحة معتقد زيد وبطلان معتقد عمرو .

يؤلف هذا الموضوع الذي اخترناه عنوانا لهذا المقال ، أعوص بحث تعرضت له الفلسفة منذ نشوئها حتى اليوم . وقد غصت رفوف من المجلدات باحثة جوهر العقل ومجال عمله ، وانقسم المفكرون وأرباب الفهم الى مدارس ومخيمات يصعب حصرها . ما العقل ، وما مجال عمله ؟ أعقل الانسان جزء من جسمه ؟ مركب كسائر أعضاء الجسم ، من لحم ودم ؟ أم انه شيء آخر يختلف عن الجسم في تركيبه وعمله ؟ وكيف يدرك العقل الجسم ؟ كيف يؤثر العقل في الجسم وكيف يؤثر الجسم في العقل ؟ لقد أفنى كثير من الفلاسفة والمفكرين ، في مراحل مختلفة من عمر التاريخ الطويل ، زهرة شبابهم في الاجابة على هذه الاسئلة . وقد وضعت نظريات عديدة لشرح طبيعة العقل وكيفية قيامه بوظائفه . ونظرا لصعوبة الالمام بهذا البحث من اطرافه كافة ، من جهة ، ولان نظريات العقل من الجهة الثانية ، لا تخرج من أن تكون واحدة من اثنين : وجود العقل

بالشكل الذى سنوضحه فى هـذا المقـال ، أو انتفـاء وجوده بذلك الشكل ، فسنقصر بحثنـا على هاتين النظريتـين • وقبـل عرض هاتين النظريتين نرى من المناسب أن نلمع الى رأى الانسان القديم فى العقل •

لقد كان الانســان البدائى لا يميز بين الروح والمادة ، كما نميز بينهما اليوم • فلم تكن بنظره مادة بلا روح ، بل لكل شىء من حيوان أو جماد روحه أو عقله الذى يوجه أعماله فى هذه الحياة • فلا تسقط أوراق الشجر فى الخريف الا على وفق غايةفى نفســها • ولا تينع الأثمار فى مواسمها الخاصة الا وهى عارفة بذلك وراغبة فيه • ولا تهطل الامطار فى الشتاء ، وتنزل الثـلوج وتتراكم الاوحال الا عن قصـد • ولا يغرد الطير الا شـدوا بذكر ليـلاه • ولا تطفح الانهـار فيطغى ماؤها على السهول والوديان الا انجازا لامر أرادت انجازه • فكل حركة ، مهمـا كان مصدرها خارجا عن ارادة الشـىء عزاها أسلافنا لارادة الشىء نفسـه •

ولعل ذلك راجع الى أن الانسان القديم كان جاهلا بمعرفة قوى الطبيعة • اذ لم يعرف مثلا ، كما نعرف اليوم ، لماذا تجرى الانهار بمختلف الاتجاهات ، وما عوامل تعرضها للفيضان فى مواسم معينة من السنة • ولمـاذا تهب الرياح وتهطــل الامطــار ، ولمـاذا تورق الاشجار وتينع الأثمار • ولماذا تعيش الأسماك تحت الماء والطيور فى الهواء وما الدافع الذى يجعل الشمس تجرى لمستقر لها ، فلا هـى تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار •• فخلع عليها ما يميزه منهـا • وبذلك جاز له أن يطبق قوانينه الوضعية عليها فأصدر أحكاما مختلفـة على كثير منهـا فى مناسبات شتى •

ينقل لنا كثير من الكتاب قصصا ممتعة فى هـذا المضمار • فيحدث وسترمارك(٢) بأن خنزيرا عجوزا ، فى جهة ما ، من العالم القديم ، قد اتهم ، وأطفاله الستة ، باغتيال أحد الناس • وقد حكم عليه المشرعون آنذاك بالاعدام شنقا حتى يموت • أما الأطفال فقد برأت المحكمة ساحتهم لعدم

1 - E. Westermarck, the Origin and Development of moral Ideas. Vol. II. P. 357.

ولا يخفى أن الكحول مادة كسائر المواد يتناولها الانسان بفمه ليوصلها الى معدته ، وهذه بدورها توزعها على سائر انحاء الجسم . فكيف اذن تتصل مادة الكحول بالعقل فتهزه طربا تلمس آثاره فى حركات الجسم وسكناته ؟ ومن الدلائل الاخرى على أثر الجسم فى العقل هو أن المرء المتخوم يتعرض عادة الى أحلام مزعجة من نوع الكابوس فى المنام . والتخمة شيء مادى مصدره أن الانسان يأكل فى بعض المناسبات كميات من الطعام أكثر مما اعتاد . تلك الكميات الزائدة من الطعام لا تخرج فى تركيبها عن أن تكون واحدة أو مزيجا من الزلاليات والسكريات والدهون والاملاح والفيتامينات وغيرها مما يعرفه المختصون فى هذا الحقل . أما الاحلام فلا تشغل حيزا من الفراغ وانما هى متعلقة بالعقل . أما تأثير العقل فى الجسم فيتضح عند الخوف اذ أن الخائف ليصفر وجهه وتزداد دقات قلبه ويجف لعاب فمه وتبتل راحتاه . والخوف ظاهرة من ظواهر العقل بينما اصفرار الوجه وازدياد خفقان القلب ، وجفاف الفم وابتلال الراحتين أمور تتعلق بالجسم . فما السبيل الخفى بين العقل والجسم ؟

لقد جرت محاولات عديدة لتحديد العلاقة بين الجسم والعقل لعل أشهرها محاولة الفيلسوف الفرنسى ديكارت وخلاصتها : أن الله خلق عقل الانسان وجسمه وصورهما بشكل معين بحيث يصاحب أية حركة جسمية حركة عقلية معينة وبالعكس . فاذا أردت أن أنام مثلا فانى اتجه الى السرير والقى بجسمى عليه . و « اردت » عمل عقلى بينما الاتجاه الى السرير والاستلقاء عليه أمور تتعلق بالجسم اشتركت فى تنفيذها أعضاء كثيرة أبرزها العينان والقدمان . فارادة العقل وحركة الجسم ، على رأى ديكارت ، حركتان متصاحبتان غير متداخلتين ولا ناتجة احداهما عن الأخرى . وتفسير ذلك كما يحدثنا ديكارت أن الله خلق العقل والجسم بهذا الشكل خدمة للحياة ليعملا متعاونين .

لعل القارئ قد لاحظ الهوة السحيقة التى حفرها ديكارت لتفصل

الجسم عن العقل . وربما كان للتقدم العلمى فى عصره أثره فى ذلك اذ طغت المادية بشكلها الميكانيكى طغيانا كبيرا على الحياة وأهمل العقل اهمالا كبيرا مما اضطر ديكارت الى فرض وجود العقل على الشكل الذى ألمعنا اليه ليخرج تفكير الانسان وارادته من عالم المادة .

لقد اتهم ديكارت بأن نظريته تنطوى على تناقض فى المعنى اذ كيف نستطيع أن نتصور شيئا غير مادى محتلا مكانا معينا من دماغ الانسان(٤) يضاف الى ذلك ما نشاهده عادة من أثر العقل فى الجسم فى حالتى الصحة والمرض فاذا أصيب الانسان مثلا بأى توعك فى الجسم صعب عليه التفكير وقد يستحيل ذلك التفكير فى حالات المرض الشديدة . واذا كان الانسان حزينا أو فرحا تحركت شهيته الى الطعام . فهل يصاحب الجسم السقيم عقل سقيم(٥) ؟ ثم أن بعض الحركات المصاحبة التى يقوم بها الجسم مثلا قد تكون معاكسة لارادة العقل . فقد أريد أن أنام ، ولكنى بدلا من أن أتجه الى السرير لاستلقى عليه ، أترك الغرفة لزيارة بعض الاصدقاء أو أفتح كتابا للنظر فى فصوله أوأدير جهاز الراديو لسماع بعض الاخبار . وقد استعين على معاكسة العقل فى هذه المسألة بتناول فنجان من الشاى أو القهوة . ثم أن حركات الجسم قد لا تكون مصاحبة لحركات العقل وبالعكس ، قد تسبق الاولى الثانية وقد تأتى الثانية قبل الاولى . أما القول بأن الله خلقهما بذلك الشكل فليس تعليلا وانما هو فرار من التعليل .

---

(٤) يشير ديكارت فى كثير من كتاباته الى أن العقل موجود فى الغدة الصنوبرية ، وذلك لانه يرى أن جسم الانسان من الناحية الفلسجية مركب من نصفين متناضرين يتساوى أعضاؤهما عددا ، فالاذن اليمنى تقابلها اليسرى ، والعين اليسرى تناضرها اليمنى وهكذا .. الخ أما الغدة الصنوبرية فلا يقابلها نظير فى جهة الدماغ الاخرى ، فهى على رأى ديكارت مركز العقل .

(٥) أما قول المعرى فى حائيته الرائعة :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتخبر انباء الامور الصحائح

فمجاز لا حقيقة ، فهو يعنى بالعقل محتوياته من عقائده وافكار .

٨٥

ينادى كثير من الفلاسـفة المعـاصرين وفى مقدمتهم جون ديوى الى تفسير جديد للعقل منسجم مع التفسير الحديث للمـادة كمـا يراها البرت آينشتاين يحدثنا هذا العالم الطبيعى فى نسبيته أحاديث كثيرة عمـا يسمى المجالات Fields فهناك مجال الجذب والمجال المغناطيسى ومجال الكهرباء وغيرها . والمجال وحده متصلة الاجزاء . فاذا حدث تغيير ما فى أية جهة من جهات المجال صاحبه تغيير عام فى المجال كله . أما الفرق بين المجال والمادة وبين الكتلة والطاقة ففرق فى كمية المـادة المستوعبة وليس فرقا فـى جـوهر التركيب . فجـوهر الانسـان كمـا يراه جون ديوى لا يخرج عن كونه مجـالا له تركيبـه المعقـد ووظائفـه التى لا تقع تحت حصر . فهـذه يد وتلك عين وهـذا أنف وذاك جهاز للتنفس وتلك جملة عصبية الخ .. لـكل منهـا أجزاء وأجزاء ، ولهـا ولاجزائهـا وأجزاء أجزائهـا وظـائف معروفة لـدى المختصين بعلمى التشريح والحياة . غير أن الجسم بأكمله يشترك حينمـا يحاول أحد أعضائه انجاز عمله . فاليد مثلا لا ترى الاشياء لان ذلك من وظائف العين ، غير أن العين تتأثر بما تمسكه اليد وتؤثر فيه . والعـين لا تشم الروائح لان الشم من خصائص الانف ولكنها تتأثر فيهـا وقد تترك انطباعا عليها وربما تعدى حدود العين والانف ونفذ الى المعدة وجهاز الهضم فأعضاء الجسم اذن يشد بعضها ويؤثر بعضها فى البعض الآخر ويتأثر فيه وقد يقوم بعضهـا بوظائف البعض الآخر عنـد العجز بسبب المرض أو الشيخوخة . فالبصير يرى بيده والاصم يسمع بعينه .

هـذا الجسم بأجزائه الكثيرة العدد والمنوعة الوظائف يولد فى بيئة ذات وجهين : أحدهما طبيعى يشمل الماء والهواء وثانيهما اجتماعى يحتوى على العادات والتقاليد والمعتقـدات . والانسان جزء من هذه البيئة خاضع لها ومسيطر عليها ، يؤثر بها ويتأثر فيها ما دام على قيد الحياة . فلا معنى لتصوره منفصلا عن البيئـة أو خارجا عنها فكما أنه لا معنى لتصور اليد دون علاقتها بالجسم فهى يد لانها موضوعة فى الجسم بشكل معـين لتقوم بعمل

معين ، فكذلك لا معنى لتصور الانسان مع اهمال علاقته بالبيئة • وبما أن الانسان يحاول أن يبقى بحالة اتزان مستمر مع بيئته فهو يسعى لتطمين حاجاته البايولوجية (من أكل وشرب وافراغ ونوم) وحاجاته الاجتماعية من عطف ومدح وغيرهما • ولما كانت تلك الحاجات كثيرة العدد ، معقدة التركيب ، قد تتزاحم بالمناكب وتتدافع بالراح ، لجأ الانسان ، لكي ينجز ما هو ضروري منها في أوانه ، الى شيء من التفكير لينتقي منها أصلحها وما العقل الا ذلك النوع من السلوك الذي يبديه الجسم كله في تفاعله مع البيئة تطمينا لتلك الحاجات • فالعقل ليس شيئا معينا كالعين والانف ولكنه وظيفة من وظائف الجسم في سعيه لتحقيق أهدافه في الحياة • وللانسان على هذا الاساس عقول لا عقل • وقد يصبح الانسان بلا عقل (من باب المجاز) متى ما عمل شيئا ما بلا تفكير أو روية فجوهر العقل اذن اجتماعي بيئي •

ولنضرب لذلك مثلين أحدهما علمي والآخر لغوي • يعني الرمز الكيمياوي H_2O شيئا معلوما للشخص الذي ألم بأوليات علم الكيمياء • فهو ظاهرة طبيعية لها خواصها • تؤثر في بعض المواد وتتأثر فيها • لها درجة حرارة معينة وانجماد معلوم • يستعملها الناس للشرب والتنظيف ولبعض المستخرجات الكيميائية الاخرى ، تسير فيها القوارب والفلك من مكان الى مكان • تمازجها الملوحة في البحر وتعذب في دجلة وفي النيل الخ •• فاذا أدرك المرء ما سلف من معان وتصرف حيالها تصرفا حكيما أصبح له عقل في هذه الناحية •

لنفرض الآن أن صاحبنا الكيميائي يهتز للبتين الآتيين :

وذكي رائحة الرياض كلامها   تبغي الثناء على الوفا فتفوح
جهد المقل فكيف بابن كريمة   توليه خيرا واللسان فصيح

ويعرف كذلك انهما من قصيدة للمتنبي ربما تذكر مطلعها والمناسبة التي قيلت فيها • ويعرف السر البلاغي في البيتين وعائد الضمير في كلمة كلامها ومعنى كلمة الوفاء وغير ذلك •

ويعرف أيضا كثيرا من شراح المتنبي • وربما قرأ الوساطة أكثر من

مرة وسره بعض ما جاء فيها • كما أنه ملم بمنزلة المتنبى فى الشعر العربى ويذكر كذلك مواقف المتنبى مع سيف الدولة وكافور ، ورأى الصاحب بن عباد فى المتنبى وعوامل ذلك الرأى • ويحفظ من غرر قصائد المتنبى الشىء الكثير • ولعله لا يقر المتنبى فى بعض مبالغاته • وقد تهزه أوصاف المتنبى للمعارك التى خاضها سيف الدولة ضد الروم وتعجبه الحكم التى نثرها المتنبى فى ديوانه وأشياء أخرى كثيرة فهو اذن ذو عقل فى هذه الحال وعقله أمر اجتماعى توصل اليه نتيجة الدرس والتتبع •

فالعقل اذن ، كما يراه جون ديوى ، ظاهرة اجتماعية تتضح فى سلوك الافراد وفى معاملاتهم • فاذا كان السلوك حكيما ومنطقيا فهو معقول وصاحبه عاقل •

بغداد

نودى جعفر

المعرض الزراعى الصناعى

لاعضاء الجامعة العربية

بمناسبة تنظيم المعرض الزراعى الصناعى السادس عشر فى القاهرة ، قامت الدائرة بالسعى لدى الجهات المصرية المختصة للحصول على أكبر قسط ممكن من التسهيلات للعارضين من رعايا الدول العربية • وقد تقرر فى هذا الشأن ما يأتى :

(أ) أن يكون العرض لرعايا الدول أعضاء الجامعة العربية مجانا •

(ب) منح العارضين من الدول العربية تأشيرة مجانية للاقامة فى مصر لمدة ثلاثة أشهر قابلة للتجديد عند الحاجة •

(ج) تخفيض أجور السفر والشحن على السكك الحديدية المصرية بنسبة ٥٠ بالمائة •

(د) اعفاء المعروضات الواردة من الدول العربية الى المعرض من الرسوم الجمركية على أن يعاد تصديرها بعد انتهاء المعرض •